# قراءة في كتاب "سيمياء العنوان"

## للدكتور بسام قطوس

د – الطيب بودربالة

قسم الأدب العربي – جامعة باتنه

العنوان مفتاح سحري لولوج عالم النص، وقديما قيل "الكتاب يقرأ من عنوانه". وقد كشف النقد المعاصر، منذ ثلاثة عقود، عن حقل نقدي استراتيجي جديد يتصل اتصالا وثيقا بعلوم النص، ألا وهو علم العنوان (أو العنونة) أو Titrologie، كما يحلو للفرنسيين تسميته.

ونظرا للأهمية الإبستيمولوجية لهذا التوجه النقدي، فقد ارتأينا، تحقيقا للمنفعة العامة، أن نعرض لهذا المؤلف، قراءة وتحليلا ونقدا. وقد نشر هذا الكتاب بعمان (الأردن)، سنة 2001، ومؤلفه أستاذ للنقد الأدبي الحديث بجامعة اليرموك.

وقد سعى المؤلف إلى تقديم عصارة ما وصلت إليه المعارف النقدية في هذا المجال، على الرغم من اعترافه بمحدودية هذا البحث.

يتضمن الكتاب مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة متبوعة بثبت للمصادر والمراجع.

يمهد الباحث لكتابه بمقدمة يشير فيها إلى ميلاد هذا العلم الجديد في الغرب، كما يستعرض عددا من رواده في النقد الغربي المعاصر، ثم يبين افتقار المكتبة العربية إلى مثل هذه الدراسات على الرغم من التفات بعض النقاد العرب خلال العقد الأخير من القرن العشرين إلى هذه النظريات النقدية. إنها الإرهاصات الأولى في هذا المجال.

تحت "عنوان تأسيس السيمياء تأسيس العنوان"، والذي خصصه للفصل الأول، يعرض الكاتب عددا من التيارات السيميائية الحديثة التي يعود إليها الفضل في التمكين لعلم السيمياء وبلورته، وكما جرت العادة في مثل هذه الدراسات، فإن نظرية دوسوسير تحتل الصدارة في مجال التأسيس.

فقد بين مؤسس اللسانيات الحديثة أن علم اللسانيات فرع من علم السيميولوجيا، كما يتجلى ذلك بوضوح في كتابه المشهور"دروس في اللسانيات العامة"، وقد كان لثنائيات هذا العالم دور حاسم في تحقيق هذا التحول المعرفي، مثل: اللغة/الكلام، التعاقب/التزامن، الدال/المدلول...الخ.ثم ينتقل المؤلف إلى تبيان إسهامات بعض رواد الفكر السيميولوجي عبر العالم من أمثال بيرس، بارت، لوتمان وإيكو.

بعد هذه التوطئة الضرورية، يتناول الباحث موضوع تأسيس العنوان على يد كبار المنظرين، من أمثال جونيت (بفضل كتابه "عتبات")، وليو هوك الذي مكن لهذا العلم من خلال كتابه المعروف "إشارة العنوان"، وعدد من المقالات التي نشرها في المجلات المحكمة، كما ثمن الباحث مجهودات كل من روبرت شولز، وجان كوهين في مجال العنونة. ويميز الباحث بين ثلاثة أنواع من العناوين:

1. العنوان في الكتب العلمية، حيث نجد المطابقة والترابط المنطقي بين العنوان ومضمون الكتاب (المرجعية والإحالة).
2. العنوان في الكتابات الإبداعات النثرية، ويحقق العنوان هنا معادلة صعبة، إذ يصعب على القارئ استجلاء دلالات العنوان.
3. العنوان في النصوص الشعرية: يجد القارئ نفسه في هذه الحالة أمام إشكالية عويصة، لاستحالة تحقيق التوافق بين النص الشعري والعنوان، ويرى جون كوهين أنه يمكن للشعر الاستغناء عن العنوان، لأن حقيقة الشعر لا تكمن في الحدود والمقولات والمفاهيم، بل في الإيقاع والرمز والإيحاء والانتهاك والمفارقة والانفتاح على المطلق، وهذا يفسر غياب العنوان في قصائد الشعر العربي القديم، فتذكر القصيدة نسبة إلى قافيتها أو رويها (لامية العرب مثلا)، كما تتحدد القصيدة من خلال الحادثة أو المناسبة التي قيلت فيها (هجاء شخص، مدح شخص مثلا).

ويقوم المطلع أحيانا مقام العنوان، لذلك استحب النقاد القدامى تحسين المطالع، لأنها مفاتيح القصيدة التي تحمل كل أسرار الكون الشعري.

والعنونة الشعرية الحديثة ناتجة قبل كل شيء عن تأثر الشعر العربي الحديث بالشعر الغربي. والعنوان كتجسيد لأعلى اقتصاد لغوي ممكن يقتضي قدرات عالية ومهارات فائقة

لفك الترميز والشفرات، مما يستوجب اللجوء إلى علوم التأويل، ويمكن أن ينظر إلى العنوان من زاويتين:

1 . العنوان كنسق منغلق على نفسه، ومتحقق بذاته ولذاته.

2. العنوان كنسق منفتح على النص وعلى اللانص.

والعنوان نص مختزل ومكثف ومختصر، إنه نظام دلالي رامز له بنيته الدلالية السطحية وبنيته الدلالية العميقة، مثل النص.

ولا يخفى على أحد وجود شبه كبير بين العنوان وتسمية المولود الجديد، فالتسمية تؤسس لنسب الطفل واندماجه في الجماعة، وكذلك الحال بالنسبة للعنوان الذي يؤسس لانتماء النص الأدبي والثقافي والأيديولوجي والحضاري.

وعلى نقيض اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول عند دوسوسير، فإن العلاقة بين النص والعنوان هي علاقة مؤسسة، ولكن هذه العلاقة المنطقية قد تأخذ أشكالا وتجليات لا حصر لها، لأن لعبة العنوان هي لعبة اللغة، وبالتالي لعبة الحرية والحياة والمطلق.

إلى أي حد يعتبر العنوان دالا على المدلول (النص)؟ إن طرق التدلال كما أشرنا إلى ذلك، لا حصر لها، فهذا الكاتب الفرنسي المشهور جورج بارنانوس يعنون كتابه "الفرح"، ويفسر هذه الاستراتيجية بقوله: ((قد تعثر في كتابي هذا على كل شيء عدا الفرح)).

إنها لعبة الخفاء والتجلي، الحضور والغياب، الواقع والمتخيل، الوجود والعدم، الاعتباطية والحتمية، يقول ليسينغ: ((ينبغي ألا يكون العنوان مثل قائمة الأطعمة، فعلى قدر بعده عن كشف فحوى الكتاب، تكون قيمته))، ويرى جونيت أن العنوان ينتمي إلى ما يسمى بالنص الموازي، (مثل العناصر الدالة على غلاف الكتاب، على دار النشر ومكانه، على العناوين الفرعية، على المقدمة والخاتمة...الخ.).

فالنص الموازي هو بمثابة الدليل الذي يساعد النص المسافر إلى مملكة العلامات والرموز والمستحيلات.

يخصص الباحث الفصل الثاني لـ"العنونة في المنجز الشعري"، يستهله بدراسة وظائف العنوان، وإذا كان العنوان في الدراسات العلمية يقوم أساسا على التعيين، فإن الأمر يختلف تماما بالنسبة للنصوص الإبداعية نثرا كانت أم شعرا، يقول السيميائي

الإيطالي إيكو: ((إن على العنوان أن يشوش الأفكار لا أن يحصرها))، وقد تساعد نظرية وظائف الكلام كما تصورها جاكوبسون على تسليط بعض الأضواء على وظيفة العنوان (باعتبار العنوان كلاما ناقصا أو جملة غير مفيدة).

ويرى محمود الهميسي في كتابه "وظائف العنوان" أن الوظيفة البارزة في العنوان هي وظيفة "التعيين" التي يشترك فيها العنوان مع الأسماء، ويقتصر دورها على التفريق بين المؤلفات والأعمال الفنية، وهي وظيفة قد نسميها الوظيفة درجة الصفر.

وهناك وظائف كثيرة قال بها عدد من النقاد، مثل:

- وظيفة الإعلان عن المحتوى.
- وظيفة التجنيس (تكشف عن الجنس الأدبي: قصة، مسرحية، رواية،...الخ).
- الوظيفة الإيحائية.
- الوظيفة التناصية.
- وظيفة الغرض.
- وظيفة التخصيص والتحديد (خاصة بالنسبة للعناوين الفرعية).
- وظيفة الإحالة.
- وظيفة الاستحالة.
- وظيفة الحث.
- الوظيفة التأسيسية.
- الوظيفة الإغرائية.
- الوظيفة الانفعالية.
- الوظيفة الاختزالية.
- الوظيفة التكثيفية.

وقد انصبت الدراسة التطبيقية على النصوص الشعرية العربية المعاصرة، المنشورة في كثير من البلدان العربية، حيث درس العنوان كنوع من التكسير لأفق التوقع، وكنوع من المراوغة والغواية والمفارقة، كما درس العنوان كلافتة وكمراوغة وكقناع.

خصص الباحث الفصل الثالث لـ"العنونة في المنجز السردي"، ويستعرض في بداية دراسته بعض وظائف العنوان في النصوص السردية، مثل الوظيفة الجمالية والإغرائية والوظيفة الإيقونية والوظيفة الدلالية.

ويعتقد المؤلف أن العنونة في النثر أقل تعقيدا من عنونة الشعر، ورغم ذلك فإن الناقد يجد نفسه أحيانا عاجزا عن فك رموز وشفرات بعض عناوين النصوص السردية لأن غموض العنوان لا يضاهيه إلا غموض الحياة، وتبقى بعض طلاسم العنوان متحدية كل النقاد.يتعرض المؤلف في هذا الفصل لبعض القضايا التي تتصل مباشرة بالعنوان مثل: شعرية العنوان، فضائية العنوان، تعدد العناوين، تناص العناوين، رمزية العنوان،...الخ.

هذه إطلالة مختصرة عن هذا الكتاب المهم والذي يضيف لبنة للصرح النقدي العربي الحديث، وهو محاولة تأسيسية، ربما هي الأولى من نوعها، لعلم العنونة في العالم العربي، وقد حرص الكاتب على التوفيق بين الجانب النظري والجانب التطبيقي، مستشهدا بأمثلة كثيرة من النصوص الشعرية والنصوص السردية العربية في المشرق والمغرب العربيين.

أما النتائج التي توصل إليها فهي كما يلي:

1. تأخر النقد العربي عن استيعاب النقد الغربي وتمثل إنجازاته في مجال العنونة.علاقة العنوان بالنص علاقة شائكة تستدعي استثمار كل العلوم الإنسانية لاستكناه حقيقتها.
2. استحالة فهم العنوان بمعزل عن النص، لأن العلاقة بينهما علاقة جدلية.
3. العنوان مفتاح النص، عتبته وبوابته، والنص بدوره حامل للعنوان ومبرمج له.
4. يصعب تحديد وظائف العنوان، وتتعقد الأمور أكثر مع عناوين النصوص الشعرية.
5. للعنونة مستويات سطحية (إخبارية، معرفية) ومستويات عميقة (متخيل، رمزية، مجاز،...الخ).

بعد العرض والقراءة، يجدر بنا أن نقدم جملة من الملاحظات التي استخلصناها من قراءتنا هذا الكتاب:

1. يبدو أن الكاتب لم يستوعب كما ينبغي نظريات العنونة التي ظهرت مع نهاية الستينات بفرنسا، خاصة وأنه يعترف بجهله الكلي للغة الفرنسية، وما وصله من تلك

النظرات هو مجرد ترجمات لا تفي بالغرض المطلوب، لأن كل ترجمة خيانة للنص الأصلي المترجم عنه، إنها ترجمة مؤسسة لوعي نقدي وهمي أسطوري، فهذه الترجمة لا تكفي إذن لتأسيس علم حقيقي في مجال الدراسات النقدية.

2. ظهرت إرهاصات هذا العلم سنة 1968 من خلال دراسة للعالمين الفرنسيين فرانسوا فروري وأندري فونتانا، تحت عنوان: "عناوين الكتب في القرن الثامن عشر"، ونشرت هذه الدراسة في مجلة Langues رقم 11، ثم ظهر بعد ذلك سنة 1973 كتاب شارل جريفال الموسوم: "إنتاج الاهتمام الروائي" والذي يضم فصلا مخصصا لـــ"قوة العنوان"، وقد برز في هذا الميدان الناقد ليو هوك كرائد من الرواد المؤسسين لهذا العلم، بفضل مقالاته المنشورة في عدد من المجلات، وبفضل كتابه "علامة العنوان" الذي أصبح مرجعية معتمدة.

ويعود الفضل كذلك إلى جيرار جونيت الذي عمق مفاهيم العنونة بفضل كتابيه "قرطاس" و"عتبات". كما نجد إضافة إلى هؤلاء الرواد المؤسسين، الناقد الكبير دوشي الذي فتح آفاقا جديدة لهذا العلم بفضل مقاله المؤسس "البنت المتروكة والوحش الإنساني، عناصر العنونة الروائية" (1973).

وقد كان لإسهامات جون مولينو، وهنري ميتران دور حاسم في بلورة هذا العلم الجديد والتمكين له في الغرب، ولم يشر الباحث في مراجعه إلى دور هؤلاء الرواد المؤسسين.

3. إن كل هذه النصوص التنظيرية المؤسسة قد انبثقت من رحم البنيوية التي كانت تعيش عصرها الذهبي في تلك الفترة، لذلك جاءت هذه الدراسات متشبعة بالفكر البنيوي.

وما أنجزه الباحث لا يعدو أن يكون دراسة انطباعية تأثرية تهتم أساسا بتفسير العنوان انطلاقا من محتويات النص ومضامينه، ومن منطلقات النقد الانطباعي التقليدي. عني الباحث، بالدرجة الأولى، بإيجاد معادلة بين العنوان والنص، أي ربط مضمون العنوان بمضمون النص، بينما قامت الدراسات الغربية، في هذا لمجال، على محاولة ربط أبنية العنوان من جهة بأبنية النص من جهة أخرى، أي الربط بين أنظمة رمزية، إشاراتية، سيميائية، تداولية، تركيبية، دلالية مختلفة.

4. أهمل الباحث نظرية التلقي في دراسته للعنونة، ذلك أن العنوان ظاهرة تواصلية، تداولية، تقتضي التفاعل والمشاركة بين الكاتب والمتلقي. إن العنوان هو بمثابة التسمية التي تلصق بسلعة أو ببضاعة ما، ويجب أن تكون لهذه التسمية قوة إشعاعية إشهارية جارفة، لأن الهدف من العنوان هو الإبهار والتأثير لحمل القارئ على اقتناء الكتاب ــ السلعة ــ. وهنا تتدخل بقوة وظيفة الإغواء والحث، والتي يترجمها الكاتب خطأ بالوظيفة التحريضية.

والعنوان، من منطلقات نظرية القراءة، يبرمج أنماطا عديدة من القراء، مثل القارئ الحقيقي والقارئ الضمني والقارئ الهستيري...الخ.

5. يصدر الباحث في دراسته عن رؤية نقدية تقليدية تتناقض تماما مع الرؤية التي أفرزت علم العنونة، إذ ينطلق الكاتب، قبل كل شيء، من مفهوم الأدب كمحاكاة للواقع، بينما يقوم التحول النقدي الإبداعي الجديد على فكرة مغامرة الكتابة.

فالكتابة أصبحت مغامرة تقوم على ممارسة دلالية أساسها التجريب داخل قبيلة الحروف والكلمات والإشارات، وأضحى الأدب لعبة سيميائية تحقق المتعة واللذة والارتواء الإيروسي والتحرر من قبضة المنطق وقمع اللوغوس واستبداد الواقع. فعلم العنونة مرتبط بالكتابة والممارسة النصية وليس بالأدب والإبداع.

لقد تسلل التجريب، كما تسللت مغامرة الكتابة المتشبعة بالبنيوية والنقد الجديد والرواية الجديدة، وحركة تيل كال، ومدرسة أوليبو، إلى عالم العنونة، فهذا الروائي الفرنسي جورج بولي مثلا يعنون روايته بـــ"الاختفاء" الذي يعني قبل كل شيء اختفاء حرف E من النص. فظاهرة الاختفاء ظاهرة بنيوية لأنها تؤطر النص من البداية إلى النهاية.

وهذا ريكاردو، أحد منظري الرواية الجديدة يختار لروايته عنوانا يحيل قبل كل شيء على عملية الكتابة، فيعنونها بـــ"الاستيلاء على القسطنطينية La Prise de Constantinople"، غير أن الحقيقة لا تكمن هنا في قصة الاستيلاء كمضمون وكحكاية وإنما كعملية للاستيلاء على اللغة والنص والكتابة، فكلمة Prise تفيد Prose (نثر)، وكلمة Con تحيلنا على جسد المرأة الشبقي. إنها مواجهة مع الكتابة، هذه المواجهة التي تحقق الانتصار على اللغة للاستحواذ على جسدها، والتلذذ بها، إنها ممارسة للكتابة كانتهاك وتلذذ إيروسي،إنها لذة الكتابة كما يتصورها بارت.

6. إن علم العنونة وثيق الصلة باللسانيات البنيوية، وبالبنيوية، وقد اجتهد ليو هوك في دراسة العنونة مستعينا بنظرية شومسكي التحويلية، فاعتبر العناوين أبنية سطحية تحيلنا على أبنية عميقة، فاتحا بذلك آفاقا واعدة لعلم العنونة.

7. اقتصر الباحث على النصوص الشعرية والسردية العربية، مما يستحيل معه توخي تأسيس نظرية شاملة، جامعة مانعة، لأن التنظير يقتضي الشمولية والتعميم والنمذجة، انطلاقا من مسح شامل لكل الآداب العالمية. إن نظرية العنونة الجديرة بهذه التسمية يجب أن تقوم على دراسة كل الآداب العالمية.

8. لم يستثمر الكاتب نظرية التناص في هذا المجال، لأن العنوان يتناص مع عناوين أخرى للكاتب (تناص ذاتي)، ومع عناوين الجنس الأدبي الواحد (تناص داخلي داخل جنس الرواية مثلا)، ومع العناوين الأدبية أو الثقافية الأخرى (تناص خارجي)، فالعنوان بهذا المفهوم نص يحيل على نصوص أخرى، كما يحيل على اللانص.

كما أن العنوان باعتباره النص الأصغر يحيل بطريقة أو بأخرى على النص الأكبر (فهو يتأرجح بين العالم الذري وعالم اللامحدود).

9. يطرح هذا الكتاب إشكالية تمثل النقد العربي واستيعابه للنقد الغربي، فالنقد الغربي وليد بيئة ثقافية وحضارية خاصة، كما يمثل أجوبة معينة لأسئلة حادة تطرحها المجتمعات الغربية على نفسها في لحظة تاريخية محددة، هذا بالإضافة إلى الخلفيات الفلسفية والفكرية لهذا النقد.إن الناقد العربي مطالب بغربلة هذا النقد وتفكيكه لإرجاعه إلى مكوناته الأسطورية والفكرية والأيديولوجية بهدف انتقاء العناصر الإنسانية المتعالية على التاريخ، والتي هي ملكية مشاعة بين كل الآداب، لأن هناك ما يسمى بالثوابت الإنسانية التي تعود إلى وحدة النوع الإنساني ووحدة التجربة الإنسانية، ويلخص ابن خلدون هذا التصور ببراعة عندما يقول: ((الإنسان هو الإنسان في كل مكان وزمان، والإنسان ليس هو الإنسان في كل مكان وزمان)).

وهذا يفرض على الناقد العربي تجاوز النظرة التأثرية الميكانيكية لاستيعاب الثابت والمتحول وتأسيس نقد ثقافي حضاري يكون في مستوى التطلعات والتحديات الحضارية.

# البيبليوغرافيا:

**المصدر:**

قطوس، بسام: سيمياء العنوان، ط1، مطبوعات المكتبة الوطنية، عمان، الأردن، 2001.

**المراجع باللغة العربية:**

الجزار، محمد فكري: العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.

حليفي، شعيب: النص الموازي في الرواية (استراتيجية العنوان)، مجلة الكرمل، ع16، 1992.

حمداوي، جميل، السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، ع3، م25، 1997.

مفتاح، محمد: دينامية النص، تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، الرباط، 1987.

**المراجع باللغة الفرنسية:**

Duchet, Claude:"La Fille abandonnée et la bête humaine, Eléments de titrologie romanesque", in Littérature, n°12, 1975.

- Palimpseste, Paris, seuil, 1972. Genette, Gerard:

- Seuils, Paris, Seuil, 1973.

Grivel, Charles: "Production de l'interêt romanesque, Paris-Lahaye, Mouton, 1973

- "Description d'un archonte", in Nouveau Roman:hier, Hoek, Léo: aujourd'hui, Paris,
UGE, 10/18, 1972.

- "La Marque du titre", Paris-La haye, mouton, 1985.

Mitterand, Henri: "Les Titres des romans de Guy des Cars", in Sociocritique, Nathan, 1979.